مطبوعات شرقية

المسيح ـ الكنيسة[1]

بقلم الاب فرديناند توتل اليسوعي

هما كتابان ضخمان وضعا باللغة الافرنسية وهما موسوعتان للمعارف الدينية المسيحية . هل من افادة بتعريفهما الى المثقفين من الناطقين بالضاد ؟

لقد انقضى عهد الانتداب الافرنسي في سورية ولبنان اما اللغة والثقافة الافرنسية تراث الجنس البشري فعهدها لا ينقضي واصولها واشجة في الشرق منذ مئة وخمسين سنة وينيف منذ حملة بونابارت الى الشرق وهي بازدهار متواصل تبدو مظاهره اليوم في العدد الوافر من اللبنانيين والسوريين والمصريين الذين يقرأون الافرنسية ويتكلمون بها فيفيدهم الاطلاع على الكتب التي تنشر بها. وقد تسمع رجالات المعارف في البلاد العربية يدعون الطلاب في المدارس الحكومية والخاصة الى استقاء الثقافة الاوربية من اقرب مواردها في اللغة الافرنسية خاصة فيتخذونها آلة لا بد منها لمواصلة الدروس الثانوية والعالية وبها تنفتح لهم الآفاق على بلاد الغرب .

وهناك الناحية الدينية من الثقافة البشرية العامة ومحور الكلام فيها على الانجيل والكنيسة وهي جديرة بان تستهوي اجتهاد كل مفكر رصين .

منذ حقبات مضت دعا الدكتور طه حسين علماء الازهر الى قراءة الانجيل والى الاطلاع على الدين المسيحي في اصدق موارده لئلا يجهلوا ما يزعمونه ويبيتوا مطمئنين وراء سورهم المنيع من الاعتقادات والآراء وبينهم وبين الحقيقة مراحل وفنادق فأثار في العقول مسائل لم تكن تخطر على بال الكثيرين في الماضي وقد

(1) Le Christ. *Encyclopédie Populaire des connaissances religieuses.* Publiée sous la direction de M. l'Abbé G. Bardy et de M. l'Abbé A. Tricot, Professeur à l'Institut Catholique de Paris... Petit in 8° 1264 pp., Bloud et Gay 1947.

Ecclesia. *Encyclopédie Populaire des connaissances religieuses.* Publiée sous la direction du Chanoine René Aigrain. Bloud et Gay 1948. Petit in 8° 1525 pp.

ساعد على هيجانها تقارب المواصلات واحتكاك رجال الثقافة وشبانها الشرقيين بالعالم الغربي اضف الى ذلك تأثير المدنية المسيحية المستخدمة الدعاية اليها مبتكرات الفنون الجميلة في دور الاذاعة وفي الافلام السينمائية الصالحة مما يلجئ الجماعات الى التفكير والفحص والمقابلة وقد يدور محور هذه الحركة الفكرية على قضية جوهرية مركزية وهي المسيح والكنيسة التي اسسها .

واليك في الكتابين اللذان نصفهما للقراء الكلام على المسيح وعلى الكنيسة وقد وضعا خاصةً لاهل الغرب من مؤمنين وغير مؤمنين لكنهما مفيدان جداً للقراء في الشرق فالمسيحيون منهم يجدون فيهما الاجوبة على سائر ما يحتاجون اليه للتدقيق في معارفهم الدينية والمسلمون منهم يقتبسون منهما شعلات تستلفت انظارهم الى التروي والبحث والانصاف فلا يتسرعون باتهامنا بالكفر والزندقة .

١ – من هو المسيح ؟

قد يعمد البعض في معرفته الى المؤلفات الاوروبية التي تصوره بصورة ضئيلة خيالية فيطمئنون لما يشاهدون مشوهاً فيها بقلم هارناك Harnack ولوزاي Loisy ورينان Renan وهي اقرب في نظرهم الى ما عرفوه مصوراً عن المسيح في المؤلفات الاسلامية من الصورة التي رسمها الكتبة المسيحيون الحقيقون بهذا الاسم .

فمن ثم ندعوهم الى قراءة هذا الكتاب وفيه المقالات الموقعة باسماء العلماء المعتمد عليهم في المسيحية المختصة للايمان والدين والعلم الصحيح .

من هو المسيح ؟ اهو انسان لا غير ؟ فان كان انساناً لا غير فيما قيل فيه عن عظمه وسمو اخلاق وتعاليم كان مذهباً فلسفياً لا صلة بينه وبين الحقيقة المطلقة التي لا يشوبها ضلال في زمان ومكان . وان كان المسيح ابن الله فثبت لنا ثبوت اليقين ان دين المسيحيين هو الدين الموحى به من الله ؟ وما الغرض من هذا الكتاب الا تبيان تلك الحقيقة فيقول قارئوه مع القديس بطرس : انا اؤمن يا يسوع انك المسيح ابن الله .

والبحث متواصل موسع بمعرفة حياة المسيح الخفية والعامة وفي آلامه وقيامته وبالتدقيق في تعاليمه عن الملكوت وعن سبل الحياة المسيحية وعن طرق الكمال الانجيلي وعن « العهد الجديد » الذي جاء به يسوع الناصري مفسراً ومكملاً « العهد القديم » .

وهذا الإله الانسان تبرز صورته نيرة وضاحة جذابة خلابة في مظاهر وشعائر ايمان الذراري المسيحية من عهد الشهداء والديامس الى ايام قسطنطين وهيلانة الى عهد البنايات الفخمة في ديورة فلسطين وسورية الشمالية على ايام سمعان العامودي ومار مارون ويوحنا فم الذهب الى زمان الكنائس الباقية اثارها في حوران والكاتدرائيات الفخمة كأجيا صوفية في استنبول والمؤسسات الخالدة بالحياة الرهبانية في صعيد مصر وفي باقي ما بقي من عز المسيحية بعد الفتح الاسلامي في بلادنا الشرقية . وهناك في البلاد الغربية مظاهر الفن المسيحي الذي لم تعتور طرق ارتقائه الاضطهادات فآثاره عامرة يزورها في باريس وروما ولندن وبرلين وموسكو اعيان المثقفين من رجالات العرب والاسلام وهناك مؤلفات المسيحيين في ناحية الحياة الروحية الكاملة وان ما جاء به المتصوفون الكبار كابن العربي والغزالي وغيرهم لم يكن الا تصدياً لصوت الكمال المسيحي المدوي في الخافقين . ومنها تتصاعد اناشيد المحبة الصبية لهذا المسيح الاله الانسان وهو الالف والياء في سفر الكون — ما هذه الاغاني السماوية التي تطرحها على موجات الاثير محطات الاذاعات العالمية الحاملة الى العالم سنفونيات بتوفن وباخ وغونو ؟ أليست الا نغمة النفس المسيحية المخطوفة بمحبة الاله الانسان التواقة الى جذب العالم الى الذي قال : اما انا فان ارتفعت على الصليب فسأجذب اليّ الجميع ! الجميع ! من رجال العلم والتاريخ والهندسة والتصوير والنحت وسائر الفنون .

فاقرأ هذا الكتاب كنت من تكون يا من تفقه اللغة الافرنسية واحب مطالعتها في مصنفاتها وكن مخلصاً لفؤادك وضميرك . اقرأ يا من يرتاب في امر مصيره ومصير العالم فترى الشك يتكسر على صخرة اليقين والظلام يتبدد في عالم النور وان تكن موجة الشيوعية الوثنية تتهم المؤمنين بالله وباليوم الاخير فدونها عصمة شخصية المسيح الاله الانسان الداعي الى التقيد بالشرائع الخالدة القائلة بان الرضوخ والعبادة لله عز وجل انما هي رضوخ وعبادة ابناء الملكوت .

وكفانا بهذه العجالة داعياً الى اقتناء هذا الكتاب فيوضع في المكاتب العامة فخراً لها ويقع تحت تصرف الاساتذة في المدارس الحقيقة باسمها موردا للطلاب ولكل عقل سليم يلتمس وجه الله .

ما هي الكنيسة ؟

وهل تتفرغ ايها القارئ اللبيب الى بحثها ؟ لربما توسعت في اجتهادك بدروس العلوم العليا من ادب وهندسة وطب وتاريخ وفن ولعل افكارك المتفرقة في تلك الانحاء المتنائية في ميدان المعارف البشرية تاهت عن التفكير في الغاية القصوى والحقائق العظمى الراجع اليها اهم ما يجب ان يهتم به المفكرون . ما اكثر رجال الاختصاص وما اوفر عدد المثقفين وما اقل الذين يبحثون عن الدين المسيحي في اساساته ويتعمقون في بحث الكنيسة واصولها ! لقد استفرغ جهودهم التوغل في مرافق دروسهم الخاصة واغفلهم عن معرفة مقامها في بنيان العرفان البشري العام . فيجهلون ما يتوجب معرفته من امور اللاهوت والليتورجيات والتاريخ الكنائسي . وهذا الكتاب يقضي حوائجهم الى ذلك ويشفي غليلهم من تكملة ثقافتهم فيفقهون فيه اصول الفلسفة المتفرع منها فعل الايمان وينقدون به مقدرات العقل البشري في معرفة الحياة ويبحثون فيه ما وراء الطبيعة من المبادئ في علم الوجود وعلم النفس وفي شروط البلوغ في ذلك الى اليقين . فما هي النفس وما هو الله واية هي البراهين على وجوده ضحضاً للملحدين ؟ وهل للوحي معنى يرضى به العقل ؟ وهل في الدين المسيحي الجواب على كل هذه الاسئلة الخطيرة ؟ وان الكتاب المقدس وعلم الاخلاق واللاهوت النظري والروحي (ويسميه العرب التصوف) وسائر شعائر العبادات والرتب الكنائسية تدعو العاقلين الى البحث والتفكير فيسترشدون بهذا الكتاب في ابحاثهم وتفكيرهم . اضف الى ذلك ما فيه من حل المشاكل الناشئة عن ترقي علم التاريخ باكتشاف آثار جديدة تتجلى فيها حياة المسيح وسير القديسين وغيرهم من الرجالات العظام وان خير دفاع عن المسيحية واسهل طريقة الى استيعاب تعاليمها والتوفيق بينها انما هو النظر الشامل سائر ما فيها من المبادئ والشرائع المرتبطة ببعضها بعضاً فترضي العقل السليم وتسد حاجة القلوب الطاهرة .

وقد تؤدي هذه « الموسوعة » المواد الكافية لبلوغ المرام .

ان الرابطة الباطنية في فصول هذا الكتاب المحررة باقلام عديدة انما هي شخصية المسيح ورسالته وتعاليمه واعماله .

يبدأ الكلام فيه بدرس حالة العالم الروماني اليوناني حين ظهور الفادي ثم يتناول وصف العالم اليهودي الفلسطيني في البلاد وفي البيئة التي ظهر وعاش فيها باليهودية والجليل وشرقي الاردن والسامرة . وعلى هذه المسارح يُظهر المؤلفون رجال التاريخ هيرودوس وبيلاطس واليهود من فريسيين وصدوقيين وكهنة الهيكل والاحبار وهم في انتظارهم قدوم المسيح الموعود به منذ الفردوس المفقود. وفي الكتاب التعليقات المأخوذة من المعاصرين كيوسيفوس وغيره ممن كتبوا في هذه الناحية . وان معالجة الاناجيل ككتب تاريخية تستدعي البحث فتسمع لاقوال مدارس الاسكندرية وانطاكية ولتعاليم الآباء في الشرق والغرب والى تفاسير المعاهد السكولاستيكية المعاصرة لازدهار الفلاسفة العرب في الاندلس وتتعرف من ثم الى مؤلفات عهد النهضة في القرن السادس والسابع والثامن عشر والى حركة الدروس التي نشأت منذ نشوء المذهب البروتستنتي الى القرن الثامن والتاسع عشر الى ايامنا .

واذا تفرغ القارئ من خاصة المثقفين الى النظر في ذلك وجد فيه ضالته المنشودة ففرح به وارتاح اليه. اما العامة من قراء الافرنسية فيجدون فيه غذاء للروح ومتعةً للفؤاد . وهو قريب المنال اليهم بما في هذا الكتاب كما في الكتاب السابق من الفهارس الحافلة باسماء الاعلام والاماكنة والمواد . عسى ان يحلّ هذا المؤلَّف محلّه في خزائن اخواننا المسلمين الذين يفقهون اللغة الافرنسية فيقرأونه ويتحققون بصدق مقالنا. اما المسيحيون فلهم فيه عنوان الفخر ومدعاةً الى النشاط والعمل في سبيل مبادئهم الشريفة .